

تولى طارق بن زياد قيادة جيش المسلمين وأغلبهم من قبائل البربر في عام (٩٢هـ / ٧١١م) منطلقاً من مدينة سبته بمراكب تجارية بمساعدة حاكمها يوليان بعبورهم مضيقاً سمي فيما بعد بمضيق جبل طارق واختاروا مكاناً استراتيجياً في منطقة وعرة تحيط بها الجبال متخذاً من أسلوب التخفي والمباغته على شكل دفعات، فكانت الدفعة الأولى سبعة آلاف جندي وبعدها ارسل له قائده موسى بن نصير بخمسمائة ألف جندي وأغلبهم من البربر فأصبحوا اثني عشر ألف جندي مما جعل منطقة جبل طارق قاعدة عسكرية ثابتة تنطلق منها الجيوش الإسلامية لاستكمال عمليات الفتح الإسلامي، وكان جيش القوط الغربيين يقدر بمئة ألف مقاتل .

بل قام طارق بن زياد بتذكير جيش المسلمين بخطورة الموقف وعدم التراجع بقوله : " ايها الناس: اين المفر. البحر من ورائكم والعدو امامكم فليس لكم والله الا الصديق والصبر... " ، ثم توجه طارق بن زياد بجيشه الكلي البالغ اثني عشر الف جندي وفارس بعدما انضمت إليه الحملة الاستطلاعية ليصل إلى (وادي برباط في مدينة قادش) وبذلك اختار أرض المعركة فعندها وصلت الأخبار لقائد القوط لودزريق بقدم المسلمين الذين لهم هيبه وسطوة لأنهم جاؤوا بروح معنوية عالية، فتقدم جيش القوط الغربيين بقيادة لودزريق بمائة ألف مقاتل قاطعين مسافة طويلة من الشمال في طليطلة إلى الجنوب في برباط مما أرق الجيش في أثناء سيره إلى موقع المعركة، فكان زمام الأمور بيد طارق بن زياد الذي اختار موقعاً جغرافياً مميزاً فوضع جيشه بين الجبل على جهة اليمين ليكون حامي جيش المسلمين والبحيرة على جهة اليسار. أما مجموعة طريف بن مالك فتمركزت في الخطوط الخلفية من جيش المسلمين لتمنع أية محاولة التفاف من جهة البحيرة، واستعد جيش المسلمين للقتال المتمركز على هضبة مرتفعة قليلاً عن السطح، فعندما وصل جيش القوط المرهق الواقف على أرض منخفضة عن السطح مواجهاً جيش المسلمين الذي كان مستعداً للمعركة بوصوله قبل يومين من بدئها عندها التقى الطرفان في ٢٨ رمضان لعام (٩٢هـ / ٧١١م).

استمرت المعركة ثمانية أيام، فقد هربت أعداد كثيرة من جيش القوط وهرب قائدهم لودزريق، ويقال غرق في بحيرة أرمى نفسه من فوق جبل وكان يعتقد بحتمية كسبه للمعركة وقدمه على سرير من ذهب يحملوه جنوده كالعبيد، فضلاً عن جلبهم الجبال لربط المسلمين بها كأسرى بعد انتصارهم في المعركة مما أثار غضب جيش المسلمين هذه المناظر، وتعمد طارق بن زياد إطالة المعركة لكسب الوقت لأن جيش القوط أعدادهم كبيرة ويحتاج إلى طعام وشراب، وعلى الرغم من الانتصار الساحق لجيش المسلمين واستحواذه على أعداد من الخيول غير أنه استشهد منهم ثلاثة آلاف مقاتل نتيجة تلك المعركة التي سميت فيما بعد بمعركة وادي برباط أو وادي لكة أو البحيرة ، واستمر طارق بن زياد بما تبقى من جيشه متجهاً بسرعة نحو طليطلة عاصمة القوط فاتحاً العديد من المناطق والمدن عنوة أو سلماً بعقد الصلح بعدما أصاب القوط بهلع وخوف شديد، وخضع الجنوب كله للفتح الإسلامي.

إنّ هذا الانتصار الكبير الذي حققه الجيش الإسلامي على الرغم من عدم تكافؤ الفريقين، إلا أن قوة الإيمان عند المسلمين أحدثت معجزة لأنها تحولت إلى طاقة فاعلة رفعت معنويات الجند وأربكت الطرف الآخر .

عند وصول أخبار انتصار المسلمين إلى القائد موسى بن نصير الذي كان يشرف على المعركة من مكانه في سبته لحماية ظهر جيش المسلمين، أرسل رسالة إلى طارق بن زياد بالتوقف عند موقع المعركة وعدم التحرك نحو الشمال حرصاً على سلامة الجيش، إلا أن طارق بن زياد لم يمثل لأوامر قائده، بل تحرك نحو الشمال قاصداً طليطلة ماراً بمدينة (إشبيلية وقرطبة)، وفتح طليطلة بدون مقاومة تذكر .

وهكذا نجح طارق بن زياد بفتح مدينة طليطلة بتسعة آلاف مقاتل مما أرسل له قائده موسى بن نصير رسالة بالتوقف وعدم التقدم لحين الوصول إليه واللقاء به في طليطلة، وفي تلك الأثناء عبر الوالي موسى بن نصير بجيشه البالغ ثمانية عشر ألف مقاتل أغلبهم من القبائل العربية الذين سمو فيما بعد بـ (البلديين والشاميين) في عام (٩٣هـ / ٧١٢م) بوصوله إلى ساحل الجزيرة الخضراء وبناء مسجد سمي بمسجد الرايات، وفتح بقية المناطق حتى التقى بـ طارق بن زياد في (طليطلة) وهي منطقة غرب طليطلة، معاتباً له لعدم امتثاله لأوامره العسكرية، لكن في الوقت نفسه هنأه على هذا الانتصار بقوله: " هنيئاً لك النصر" .

عامل جيش المسلمين أهل البلاد المفتوحة بكل إنسانية بعدم الاعتداء والعدوان على الأطفال والنساء والشيوخ مما اندهش الناس لهذا التعامل الإنساني الرفيع فدخل الكثير منهم في الدين الإسلامي بدون إجبار أو إكراه

وسار طارق بن زياد نحو الجهة الغربية من الشمال واستمر موسى بن نصير بفتح الجهة الشرقية وتحرير الجنوب الأندلسي . تواصلت الفتوحات العسكرية حتى وصولهم إلى منطقة الصخرة (صخرة بلاي) في الشمال الغربي للبلاد مما استعد طارق بن زياد لفتح هذه المنطقة لأنه أدرك بأنها ستصبح مركزاً لتجمع فلول القوط الغربيين وستشكل خطراً على المسلمين، حتى جاء أمر الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك في عام (٩٥هـ / ٧١٤م) بعزل الفاتحين وعودتهم إلى دمشق لخشيته على جيش المسلمين، وأرسل اليهم رسولاً آخر لتأخيرهم عن العودة، بعدها قرر القائدان الرحيل وترك عبد العزيز بن موسى والياً على الأندلس، وأصبحت مدينة إشبيلية عاصمة الأندلس، وخضعت شبه الجزيرة الايبيرية للمسلمين في هذه المدة اليسيرة الثلاث سنوات بالإيمان والعزيمة لدى جيش المسلمين لكن أوقفهم أمر الخليفة لخشيته على جيش المسلمين من الدخول في تلك المناطق النائية والبعيدة عن مركز الإمدادات .

المصادر: الحميري، صفة جزيرة الأندلس من كتاب الروض المعطار في خبر الاقطار، تحقيق: لافي بروفنسال، الطبعة الثانية، دار الجيل، بيروت-لبنان، ١٩٨٨م.